صورة من الثورة الفرنسية

مـدام رولان

١٧٥٤ - ١٧٩٣

بقلم عبد الرحمن فهمي
ليسانسيه فى الآداب

مدام رولان، أنقى شخصيات الثورة الفرنسية، لا تزال تدوى كلماتها الأخيرة وهى تصعد درجات المقصلة فى كافة الأرجاء.

وهى مانون ابنة مثال باريسى يدعى فيليون، وكانت غرفتها ملاصقة (لاستيديو) النحت، تقضى فيها وقتها منهمكة فى قراءة تراجم أبطال التاريخ. أبكاها يوماً أنها لم تكن رومانية أو اسبرطية، وقد جهلت أنها سوف تواجه أزمة لم يواجه مثلها أحد ممن كانت تحلم أن تكون مثلهم من أبطال التاريخ.

وكان يسرها كثيراً فوق قراءة الكتب اصطحاب أمها لها الى حديقة النبات أو اللكسمبورج فى باريس، عشقت القرية، ويدل على ذلك قولها (إننى أحب هذا السكون الذى لا يعكر صفوه غير صياح الديكة، وأشعر بالراحة التى تشعر بها شجرة

ولو أمكننا أن نرى المادة المحيطة بنا، يعنى العلم، لم تظهر لنا كما تظهر عادة — أى جامدة ومحسوسة بل تظهر مثل المجرة كثيرة الثقوب والمسافات الشاسعة بين أجزائها. ففى داخل الذرة أماكن خالية. والدقائق قليلة متباعدة كالسيارات فى النظام الشمسى

انما الحياة فى هذه الدنيا تجربة كبيرة، ونحن موجودون هنا لنجرب ونمتحن. ومصائر الوجود فى الابد وفى عين الخالق مفتوحة أمامنا، وهى أبعد مما نستطيع تصوره. وليس الوجود الحاضر على هذا السيار، سوى قصة قصيرة، ومخاطرة وقتية، وسفر زائل، يتبعها ذلك السفر السامى الطويل

فلا تخف لأن الخوف قطعة من العذاب « والمحبة الكاملة تزيل خوفنا » وهذا السكون تحكمه المحبة الكاملة. وهذه هى رسالتى. فلنغن مع المرنم صاحب الزبور « مسبحى الرب أيتها السموات واسجدى له »

(م. س)

ينقلونها من صندوق ضيق محدود الى حقل واسع فسيح) وأحبت الرسم الذى يأخذك منه سحره وقوته. غير أنها لم تواصل عمل أبيها فى النحت طويلا، لأنها مالت الى العلوم، فكانت تنمى بما تقرأه وتلحظه من تجارب الحياة عقلا ناضجاً خدمت به الصالح العام.

أدخلت وهى فى الحادية عشرة من عمرها ديراً تعرفت فيه بصديقتين حميمتين توثقت بينهن عرى الصداقة وهما: هنريت وصوفى كانيت. وبعد أن خرجن من الدير ورجعن الى دورهن بقى الاتصال بينهن وثيقا، وذلك ما حدا بجدة مانون الى أن تقول لها (ستتسعين صديقتيك حالما تتزوجين) وسنرى مقدار صحة هذه الملاحظة من جانب الجدة العجوز.

ورسائل مانون أحسن وسيلة نرى منها صورة واضحة لشباب هذه الفتاة، فقد تحول اهتمامها بالدين الى تعشق الفلسفة، ساعدها على ذلك عقل جبار يغلى كالرجل ولا يستريح. وقد انتقت من بين خطابها العديدين رجلاً توهمت أنها تميل اليه، وهو مؤلف فيلسوف يدعى لابلاتيير، ولكن سرعان ما ألقت عن نفسها هذا الميل واطرحته جانباً، غير واجدة فيه مثلها الأعلى. وكانت جد كلفة بكتابات روسو، وقدر لها أن تراه، وقد وصفت درجات سلم داره (... كما لو كانت درجات سلم معبد).

من هذه الرسائل نرى فى مانون فتاة متحمسة ذكية، حية نشطة، محبة للاطلاع، قوية الذاكرة، وقد أثرت وفاة أمها فى حياتها فخبا نورها قليلا بتأثير الصدمة والحاجة الى المال بعد ذلك.

إلا أن القدر خط صفحة جديدة فى حياتها، فان شخصاً يكبرها بعشرين سنة تمكن من أن يكسب عطفها الدائم نحوه ومحبتها الثابتة له، وهذا الشخص هو السيد رولان المفتش العام للصناعات، وزفت إليه وهى فى سن السادسة والعشرين، وانتقلت معه الى ليون.

وكان لأسرة رولان نخبة طيبة من الأصدقاء المثقفين الوطنيين الذين غالبا ما كانت تراسلهم مدام رولان زاعبة بذلك تحسس الطريق نحو المجتمع الباريسى الساطع، فان أسعد أوقاتها هى تلك التى كانت تقضيها فى غرفة الموقد بين ابنتها الصغيرة تعلمها حياكة

قطعة من قماش وبين زوجها يدرس أوراقه على مكتبه ، على حين تطرق أذنها فرقعة النار فى الموقد وصوت العصفور يصدم النافذة . وصفت فى رسائلها حبها الشديد لتغيير فصول السنة واختلاف مواسم الزراعة فى الحقول ، ولم يعل على حبها لفترة تقضيها وسط الطبيعة الهادئة أى حب آخر

غير أن هذا السلام لم يدم طويلا ، فان الحكومة فى فرنسا كانت سيئة فى هذا الحين ، والارستقراطية الترفة فوق القانون ، والفوضى ضاربة بجرانها على ربوع المملكة ، أما الشعب الجائع فالويل له إن نبس أحد أفراده ببنت شفة ضد النظام القائم ، وكانت تكفى اشارة بسيطة أو تلميحة سريعة لطرح المحتج فى أعماق السجون. ورمت أسرة رولان وأصدقاؤها بانفسهم فى احضان الحركة التى قصد بها اسقاط النظام الاقطاعى ومساوئه ، وأصبحت مدام رولان : هذه المرأة الجميلة الملتهبة ، روح حزب الجيروند الذى عمل على تشييد عهد الحرية على أساس معتدل

وبدأت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وعهد الى رجال حزب الجيروند عام ١٧٩٢ بالحكم ، ولكن اعتدالهم واظهار استيائهم من مذبحة سبتمبر ورفضهم التصويت ضد إعدام الملك أتاح الفرصة لنجاح المتطرفين فقضوا على المعتدلين — منشأ الثورة ومنبعها — وصعدوا على أنقاضهم الى منصة الحكم . وفى عام ١٧٩٣ أعدم الملك ومعظم الجيروندين وبدأ عهد الأرهاب برعاية اليعاقبة أكثر متطرفى الثورة شدة وعنفا .

عندما كانت السلطة فى يد الجيروندين عهد الى السيد رولان بوزارة الداخلية ، فكانت زوجته هى التى تحضر أوراقه الرسمية ، وأصبحت بعد أن كانت تحرر الى أصدقائها أمثال صوفى وهنريت تراسل البابا وأمنت برسائل يستعين بها المؤرخ الذى يكتب عن هذا الفصل من تاريخ فرنسا ، ولو كانت مدام رولان رجلا أو لو سمح للمرأة فى ذلك الوقت بلعب دور صريح على مسرح الحياة العامة لاختلف تاريخ الثورة الفرنسية عما هو عليه الآن .

وقد انتقلت مدام رولان من مسكنها المتواضع الى الدار الفخمة التى كان يقطنها الوزير الخطير نكر ، ورافقتها حياتها الجديدة كل الموافقة ، الا انها لم تؤثر فى خلقها السامى وطبيعتها البسيطة . وكانت تمد البساط للوزراء جميعاً مرة كل يوم جمعة ، فاذا انصرفوا خلعت عنها ملابسها الرسمية ، وانكبت على مكتبها تعمل بجد ونشاط فائقين .

وتمتاز من الجميع بهدوئها الظاهر ، يكفى من جانبها كلمة هادئة تلقيها لتقضى بها على الاختلاف الحاد فى الآراء ، وغالباً ما أرسلت شـــعاعاً منيراً يستضىء به القوم فى نقاشهم فتحل العقد وتفك الطلاسم .

وكثيرا ما دعاها المجلس الوطنى ليطرها أعضاؤه وابلا من الاسئلة كانت تجيب عليها جميعاً فى اعتدال ووضوح وصراحة غير هيابة ولا وجلة ، ولم تخف قط على حياتها ، انما كان اشفاقها دائماً على وطنهـا ، وقد رأت بنظرها الثاقب وعقلها الفطن الناضج أنه ليس بين الجيروندين رجل واحد يمكن أن يعهد اليه بأمر البلاد ، وأنه لا يوجد بين اليعاقبـة المتطرفين اثنان يمكن أن يثق أحدهما بزميله .

وسرعان ما تحقق تشاؤمها عند ما تمكن اليعاقبة بقيادة مارا ودانتون وروبسبير من اسقاط الجيروندين ، وأدانوا أسرة رولان فيمن أدين من المعتدلين ، فهرب رولان وقبض على زوجه ، ثم أخلى سبيلها ليقبض عليها مرة أخرى بعد ساعة من اخلاء سبيلها ألقيت فى أعماق السجون متهمة بأشنع التهم وأسفلها ، ولكنها فى السجن كما هو الحال فى أى مكان آخر استطاعت أن تفزو القلوب ، وصار حراسها طوع ارادتها ورهن اشارتها . ويشير صديق لها اعتاد زيارتها فى سجنها (بأنها كانت تحدثه فى شجاعة الرجل العظيم بصوت عذب كالموسيقى) الا انها كانت تخلو بنفسها تستند الى النافذة وتمضى الساعات الطوال . وبعد أن كانت ترى فى فرنسا مهداً للاخاء والحرية والمساواة ، أصبحت تجد فيها كابوساً ثقيلا ومجزرة يذبح فيها أبناؤها بتهمة حانق أو شكوى حاسد ، ولم تسد شهوة الدم وجشع السفاكين ما كان قائماً ليل نهار من قتل النفوس بالمقصلة والرصاص والاغراق .

وقد ذكرت فى آخر رسائلها انها (تحب ضوء الشمس ودارها وزوجها وابنتها المحبوبة وخادمتها الوفية) وتركت لابنتها صحفاً جمة من رسائل الحنان الأمومى ملأى بالنصائح الغالية والكتاب الآتى أحد هذه الرسائل التى كتبتها فى سجنها اليها :

(لست أدرى يا عزيزتى ان كان يسمح لى بمقابلتك أو الكتابة

اليك مرة أخرى أو لا . تذكرى أمك دائماً . وهذا أحسن ما يمكن أن أقوله لك . ولقد عهدتنى سعيدة لشعورى بتأدية الواجبات الملقاة على عاتقى ، ولاستطاعتى خدمة الذين يعانون آلام الحياة ومساعدتهم ؛ وهل الحياة إلا هذا ؟ لقد وجدتنى أذعن للقدر إذ يسوقنى الى الأسر ، ولست مجرمة أستحق هذا ، إلا أن الذكرى الطيبة والماضى الحسن والأعمال الجليلة هى كل عزائى ، وبمثلها يستطيع المرء أن يحتمل مساوئ الحياة وتقلبات القدر . ان ما أتمناه هو ألا يقدر لك مثل ما قدر لى من المشاق والمتاعب وهناك مالو استطعت اتباعه تفاديت به قسوة الحياة وحميت نفسك من مساوئها ، ألا وهو العيش المنتظم الذى لا فراغ فيه ؛ فهو حارس من كل خطر ؛ وهو حاجة تبحث عنها النفس وحكمة يسمى اليها العقل ، ليكون صاحبهما جاداً محترماً فى حياته . فكونى عند حسن ظن أبويك بك ، فقد تركاك مثلا جميلا ، ولو استطعت أن تستغلى هذا المثل للوصول الى ناحية الكمال أمكنك أن تحيى حياة نافعة) .

زارتها فى سجنها يوماً هزيت كانيت ، وطلبت اليها أن تبدل لباسها وتسرع الى الهرب ، وتبقى هى فى مكانها ، إلا أن مانون رفضت طلب صديقتها فى إباء وشمم ، قائلة لها (ولكنهم يقتلونك ان فعلت ذلك) وبعد خمسة أشهر من سجنها استدعيت للمحاكمة ، وكيلت لها التهم الشنعاء ، فوقفت تدفعها عن نفسها بأكبة ساخطة . وفى اليوم التالى فى ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٣ سيقت الى المقصلة ، ولما رأت الشجاعة تخون جلادها حثته على أن يؤدى واجبه ، وقد ظهرت وهى على شفا حفرة الموت نبيلة فى لباس أبيض ناصع يدل على طهرها . وشعرها الأسود الفاحم مرسل حتى وسطها ، ينبعث من عينيها البراقتين شعاع الشجاعة والنبل .

وبينما هى على درجات المقصلة اذ عنت لها أفكار فطلبت قرطاساً وقلماً لاثباتها ، إلا أن طلبها رفض . ولن نعرف بطبيعة الحال ماهية هذه الأفكار التى نادتها ساعة الموت فلم تتمكن من تلبيتها .

بعد أسبوع من اعدام مانون عثر رجل على جثة قائمة الى بعض الأشجار وقد امسكها بالشجرة سيف قد نفذ اليها من قلبه وعند قدمه ورقة خط عليها ما يأتى : (أنا رولان . لم أترك فرصة تمر دون اقتناصها فى سبيل اسعاد وطنى . أقدمت على ازهاق روحى لا من خوف ولا وجل ، ولكن احتجاجاً على اعدام زوجى . فرغبت عن الحياة التى دنستها الجريمة) .

حقاً ان هذه الصورة تمثل نهاية قاسية لفصل مزعج من فصول التاريخ الانسانى .

عبد الرحمن فهمى
ليسانسيه فى الآداب

فن التصوير عند العرب

للأستاذ محمود خيرت

ضرب العرب بسهم وافر فى الأدب والاجتماع والفلسفة والسياسة والفلك والكيمياء والطب وتخطيط البلدان وغير ذلك ، فكانت مدنيتهم رائعة لم ينكرها المنصفون من علماء الغرب الذى نقلها وبنى عليها

والى جانب هذه الفنون فن الزخرفة والعربيات « arabesques » التى يقوم أساسها على نبات عرف العرب كيف يبرعون فى تعديد أوضاعه الهندسية براعة أثارت إعجاب هؤلاء العلماء الذين شهدوا لهم أيضاً بعلو كعبهم فى فن الانشاء والعمارة كما تنطق به جوامع القاهرة وقصر الحمراء بالأندلس وغيرها مما يعد من أعاجيب الآثار .

نعم ، إن الطراز العربى غير مبتكر ابتكاراً لأنهم حين هبطوا الى مصر والأندلس ووقعت عيونهم على آثار الفن البيزنطى فيهما استخلصوا منه عنصراً لطرازهم ، وحسبهم أنه مع تصويره للروح العربية جمع بين القدرة والحسن والرشاقة .

وهكذا برهن العرب على مقدرتهم الفنية وعلى تسامحهم واحترامهم تلك الآثار فلم يعبثوا بها كما فعل « الانكوكلاست » أولئك النساك المتطرفون بآثار بيزنطة لما سيطروا على الحكم بها فى القرن التاسع وصدر القرن العاشر ، إذ قضوا على الفن المسيحى فهشموا تماثيله وشردوا فنانيه حتى قصد بعضهم الى اكس لاشابيل للخدمة فى بلاط الملك شرلمان .